المقتطف

الجزء الثاني من المجلد الخامس والاربعين

١ اغسطس (آب) سنة ١٩١٤ — الموافق ٩ رمضان سنة ١٣٣٢

جوزف تشمبرلين

JOSEPH CHAMBERLAIN

هذا لرجل مقام عظيم بين رجال المال والاعمال وبين رجال الادارة والسياسة وقد ترجمناهُ كرجل مالي سنة ١٩٠٣ قبيل انقطاعهِ عن السياسة ونحن موردون الآن ما قلناهُ فيهِ حينئذٍ ثم نتبعهُ بشيءٍ عن حياتهِ السياسية

« المشهور ان تشمبرلين من رجال السياسة لا من رجال المال ولا من رجال الاعمال . ولا شبهة في انهُ من اكبر ساسة العصر واعلى مقامهُ السياسي الآن في انكلترا اعظم من مقام كل سياسي آخر لكنَّ مقامهُ المالي ليس دون مقامهِ السياسي والاول اساس الثاني ودعامتهُ

« ولد في اواسط سنة ١٨٣٦ ودرس في مدرسة لندن الكلية ولم يستطع ان يطلب العلم في مدرسة من مدارس الانكليز الجامعة كاكسفرد او كمبردج او ادنبرج لان هذه المدارس كانت تقفل ابوابها في وجوه الموحِّدين وكان ابوهُ منهم وهم فئة من البرتستانت لا تعتقد بالوهيَّة المسيح . ومن المحتمل ان اقتصارهُ على الدرس القليل افادهُ ولم يضرَّهُ لانهُ لم يغرهِ بالاهمال في العلم ومضايقهِ ولو فعل ذلك لصار من العلماء المتحجرين الذين يشار اليهم بالبنان ولكن نفعهُ لنفسهِ ولامتهِ لم يكن قدر ما هو الآن

« كان ابوهُ يبيع الاحذية بيع تاجر لا بيع صانع واشتهر بعلو الهمة وشدَّة الحزم مع شيءٍ من الدعة فورث منهُ مقاماً في التجارة ودراية في تعاطيها . ولما صار لهُ ١٦ سنة من العمر اطلعهُ ابوهُ على اسرار صناعتهِ وادخلهُ معمل الاحذية فتعلَّم صناعتها ونشأ اسكافاً من الاساكفة وتاجراً من التجار . وقد وقف خطيباً في جمعيَّة الاساكفة منذ بضع سنوات وقال « اني بقيت في مدينة لندن الى ان صار عمري ١٨ سنة وكان يمكنني ان اقول حينئذٍ ما لا يستطيع كثيرون

من اعضاء هذه الجمعية ان يتوفوه وهو ابن اخي وجدي وابا جدي من الاساكفة الذين تعاطوا هذه الصناعة على التعاقب في بيت واحد مئة وعشرين سنة وفي هذا المكان وقفت مع ابي وانا فتى وخطبت الخطبة الاولى »

« لكن تعلُّقه الساكفة والتصاقه بجمعية الاساكفة لم يطولا الا سنتين فان زوج عمته واسمه تلفورد كان يصنع نوالب الخشب واشترى امتيازاً بطريقة لعمل النوالب من مخترعها واقنع ابا تشمبرلين أن يأتي الى مدينة برمنهام ويشاركه في هذا العمل فاشترك الاثنان ورد بازمان طويلاً الى ان تكللت اعمالهما بالنجاح وصار لهما معمل كبير لعمل النوالب . وكان يُصنَع في برمنهام سنة ١٨٦٥ نحو ١٩ مليون نولب كل اسبوع ونحو ١٣ مليون نولب منها تصنع في معمل تلفورد وتشمبرلين والنولب يعمُّ ما يسمَّى في مصر بالقتيلة والالاوظ والبرمة وما يسمَّى في الشام بالبرغي »

« والشائع ان الآباء يشتغلون الاعمال الكبيرة مبتدئين من اسسها واولادهم يرثونها قائمة الاركان مشيدة البنيان فيتولون ادارتها وهم يجهلون مبادئها فتضعف في ايديهم رويداً رويداً الى ان تزول اما صاحب الترجمة فشارك اباه وزوج عمته في عمل النوالب وكل ما يتعلق بها ولم يقتصر على ذلك بل عني بالقسم التجاري من العمل وهو القسم الاهم اي بيع النوالب الى التجار وفتح الاسواق لها في اقطار المسكونة . وجرى ابن عمته مجراه فتعلَّم صناعة عمل النوالب مثله وكان يشارك العمال في عملها

« ولم تكن النوالب دقيقة من رؤوسها كما هي الآن فكان التجار يضطرُّ ان يثقب لها ثقباً تدخل فيه واستنبط تشمبرلين طريقة تُصنع بها دقيقة من اعلاها كما ترى في صورته ونال امتيازاً بذلك فراجت نوالبه اكثر من كل النوالب واتسع معمله حتى صار فيه اربعة آلاف عامل وجمع من ذلك ثروة وافرة جداً . ومصدر ثروته اتقانه عمل النوالب واجتماع المعامل الصغيرة وضمها كلها الى معمل واحد وترويج مصنوعاته في المسكونة . وقد تعب في كل فرع من هذه الفروع وبذل اقصى الجهد لنيله واعتمد على الاقيسة الفرنسوية في عمل النوالب التي ترسل الى البلدان الفرنسوية وعلَّفها بالورق الازرق الذي اعتاد التجار ان يروها فيه . ولما صارت له ثروة طائلة اعتزل العمل الصناعي والتجاري وعكف على السياسة وامرها في السياسة معلوم وهو الآن وزير المستعمرات البريطانية وصاحب الكلمة النافذة في سياسة الامبراطورية الانكليزية »

هذا ما كتبناه عن سيرته الصناعية التجارية منذ احدى عشرة سنة قبيل استعفائه من الوزارة لكن سيرته هذه لا تذكر في جنب سيرته السياسية الامبراطورية مع ان الاولى اساس الثانية ولولم يثر ويكفح مؤونة الكدح في طلب الرزق لعاش ومات خامل الذكر

اما وقد جمع ثروة طائلة من الصناعة والتجارة في سنين قليلة فالتفت الى الاهتمام بما يبقي لهُ ذكراً بين عظماء الرجال مدفوعاً الى ذلك بميل فطري فيهِ الى حب الظهور ومقدرة طبيعية على الاحاطة بالمواضيع المختلفة والتعبير عنها بكلام يقنع او يفحم فانتظم في المجلس البلدي بمدينة برمنهام ورأس جمعية التعليم الوطني فيها وانتخب محافظاً لما فاجرى فيها وفي التعليم كثيراً من ضروب الاصلاح والف جمعيةً من الاحرار المنطرفين واخفى باللوم والتعنيف على سياسة المحافظين وعدت رئيسهم انرزير دزرائيلي بانهُ الرجل الذي « لا يصدق الا عرَضاً » وترشح للانتخاب في مجلس النواب عن مدينة شفيلد سنة ١٨٧٤ ففشل فاعتزل اعمالهُ الصناعية والتجارية ونرحسب الظاهر وترشح ثانية سنة ١٨٧٦ بدل عضو مستعفٍ فانتُخب عن برمنهام بدلاً منهُ ودخل مجلس النواب كعضو من الاحرار المنطرفين · ولما ظهرت قوة عارضتهِ في الخطابة والجدل ورأى فيهِ المنطرفون من الاحرار اقوى نصير لهم · وظلَّ على ذلك عشر سنوات دخل في غضونها وزارة الاحرار سنة ١٨٨٠ برئاسة غلادستون وجُعل رئيساً لمجلس التجارة فوضع قانون الافلاس واهتم بامور عامَّة الشعب واملاكهم · ولما اعيد الانتخاب سنة ١٨٨٦ اعيد الى الوزارة لكنهُ استعفى منها لما رأى رئيسهُ غلادستون عازماً على اعطاء الاستقلال الاداري لارلندا · وانحاز اليهِ جمهور من الاحرار اتحدوا مع المحافظين في مقاومة الاستقلال الاداري فأُطلق عليهم اسم المتحدين · فاشتد حنق بقية الاحرار عليهِ ولقبوهُ بالمرتد والخائن · ثم انتظم في وزارة المحافظين برئاسة لورد سلسبري فجُعل ناظراً للمستعمرات وحملهُ البحث في امورها على وجوب الاهتمام بربطها كلها بالبلاد الانكليزية بربط محكمة ومن ثمَّ شاعت عند حزبهِ وعند اكثر الانكليز فكرة الاتحاد الامبراطوري والنظر الى المستعمرات كلها كاعضاء حية من جسم الامبراطورية البريطانية · وتدرَّج من ذلك الى انهُ يجب على الحكومة الانكليزية ان تضع رسوماً جمركية على كل ما يرد اليها من البضائع والسلع وتستثني من ذلك ما يرد اليها من مستعمراتها فتزيد دخلها وتقوي الزراعة والصناعة الوطنية وتحكم عرى الاتحاد بينها وبين مستعمراتها · لكن هذا الرأي لم يرق لسائر انصارهِ من الاحرار ولا لكثيرين من المحافظين لاسيما وان علماء الاقتصاد مختلفون فيهِ فاستخدمهُ خصومهُ سبباً لمقاومتهِ ومقاومة حزبهِ فانحوا واضطر ان يعتزل الخطط السياسية سنة ١٩٠٣ ولكنهُ بقي يكتب ويخطب ويجادل ويناضل الى ان اشتدَّ عليهِ داء النقرس سنة ١٩٠٦ فمنعهُ عن حضور مجلس النواب بعد ذلك لكن انصارهُ ظلوا يرتشدون بارشادهِ ويستمدون من آرائهِ

قابلناهُ لما زار القطر المصري وحادثناهُ في بعض الشؤون العمومية والخصوصية فرأيناهُ

صريحاً في التعبير عن افكاره راغباً في الوقوف على الحقائق شديد الاهتمام بما يعلي شأن قومه لا شيء فيه من انصاف والدعوى كما يكون كبار انسانة عادة . وقد عرفت المدارس الجامعة فضلهُ ولو لم يدرس فيها فمنحتهُ جامعة اكسفرد وجامعة كمبردج لقب دكتور في الشرائع

وكانت وفاتهُ في ٢ يوليو الماضي بداء السكتة واحتفل بدفنهِ في السادس منهُ وأبَّنهُ وزراء الانكليز وصحفهم وصحف اوربا واميركا والمستعمرات وكتبوا فيهِ الفصول الطوال

الشفاء بلا دواء

كان للطبيب والكاهن والساحر مقام رفيع عند الاقدمين بل كان هؤلاء الثلاثة واحداً فان الساحر كان كاهناً وطبيباً اي قام في فجر التاريخ وقبلهُ الناس ادَّعوا انهُ لما يقع للانسان من صحة ومرض ولما يصيبهُ من فوز وفشل اسباباً غير منظورة وان الكاهن والساحر والطبيب يستطيعون الوصول اليها وجلبها او دفعها وقد يحتمل ان الذين ادعوا هذه الدعوى استنبطوها استنباطاً لاجل السيادة او الكسب ولكن الاقرب الى العقل انهم رأوا الامور تنقاد اليهم احياناً فاذا سحروا رجلاً قصد نفعهِ او ضرهِ انتفع او تضرَّ واذا توسلوا الى معبود ولو حجراً او شجراً لكي ينفع رجلاً او يضرهُ نال ذلك الرجل ما طلبوهُ لهُ . واذا تفرَّسوا في رجل بدا لهم من ملامحهِ ما ينطوي عليهِ ضميرهُ كأنهم قرأوا في صفيحة وجههِ اسرار الغيب ولهذا كان للطبيب والكاهن والساحر شأن عظيم عند كل الامم لاعتقادهم ان لهم اتصالاً بعالم الغيب وسلطة على القوى التي لا ترى

ولا يخفى ان هذا الاعتقاد باقٍ الى الآن وانهُ يحدث من الحوادث كل يوم ما يعززهُ ولو قامت الادلة الجلية على فسادهِ لا لان الحوادث التي تحدث مكذوبة بل لان اسبابها غير ما يُظَن

كنا اذا ذُكرت لنا حادثة من هذه الحوادث كأن قيل ان فلاناً عُلِّق حجاباً او شرب ماء او زار ضريحاً فشفي من مرض اعتراهُ نفسّر ذلك إما بان المرض كان وهماً فزال بوهم مثلهِ او بانهُ كان خللاً في فعل بعض الاعصاب فأُصلح بفعل عصبي آخر ناتج عن الاعتقاد . واما المرض الفعلي المسبب عن آفة في جوهر الاعضاء لا عن خلل في وظيفتها فلا يزول بهذه الوسائل وامثالها . فاذا دخل ميكروب السل الرئتين وافسد جانباً كبيراً منهما فلم يبق منهما ما يكفي للتنفس وتطهير الدم واذا غا السرطان في المعدة واتلف بناءها حتى لم تعد تستطيع هضم الطعام واذا دخل ميكروب التيفويد الامعاء واكل جدارها وخرقهُ واذا مرَّت خردقة